وراثة العبقرية

« نشرت مجلة (الشهر) الفرنسية بحثا طريفا فى وراثة العبقرية استعرض فيه كاتبه أحدث النظريات العلمية فى هذا الموضوع . فآثرنا نقله إلى قراء الرسالة »

شـــغلت مسألة وراثة العبقرية طائفة كبيرة من العلماء والفلاسفة منهم جالتون وموبياس وريبو ولمبروزو وكرتشمر وغيرهم من الباحثين

وهـذه المعضلة تبدو فى أشكال مختلفة . تبدو أولاً كحالة خاصة من معضلة الوراثة على العموم . إذ ما هى الآثار التى يتركها الآباء والأمهات ؟ وبأى الأشكال تظهر ؟ وما هى الآثار النسبية فى تكوين الشخصية للوراثة المجردة من جهة ، وللبيئة والتربية من جهة أخرى ؟ وهل أثر الوراثة دائم أو غير دائم ؟ وهناك وجهة نظر أخرى تعتبر العبقرية والذكاء شذوذاً إذا قورنا بحالة الشخص العادى . وكثيراً ما يصحب هذه العبقرية وهذا الذكاء فقدان فى التوازن الجسمانى ، وغالباً فى التوازن النفسى . كذلك قد تصحبهما حالة جنون

ولأننا نعلم أن عدداً من هذه الأمراض ينتقل بالوراثة ، كان لنا أن نتساءل عن صدى هذا الاتجاه للزدوج : وراثة العبقرية ، ووراثة الاضطراب العصبى أو المرض

إن مما لا شك فيه أن (فى بعض الحالات) تكون العبقرية أحياناً وراثيـة . وقد ظهر ذلك جلياً فى كثير من رجال العلم والموسيقيين والمصورين والشعراء وكبار الكتاب

فبين العلماء استطاع جالتون أن يجد أسراً كان بها عالمان وأحياناً ثلاثة أو أربعة أو خمسة ، وأحياناً أخرى أكثر من ذلك . ووجد موبياس ٢١٥ أسرة اتفق فيها أن كان الأب والابن وافرى الاستعداد الرياضى ، (بين هذا العدد ثلاثة وثلاثون والداً لكل منهم أكثر من ابن واحد موهوب) . وقد وجد هذا الاستعداد فى ثلاثة أجيال متتالية سبع عشرة مرة ، وبين خال وابن أخته عشرين مرة : وبين أبناء العم مرتين ، وبين أشقاء وشقيقات ١٣١ مرة ، وبين أكثر من شقيقين ثلاثة وعشرين مرة . وكان العالم الفلكى الكبير (دومينيك فرانسوا آرجو) لهثلاثة أشقاء وولدان كلهم موهوبون فى استعدادهم الرياضى . وكانت أسرة برنولى Bernouilli أعظم أسرة علمية عرفها التاريخ مما دفع الأستاذ دوبليه الفلكى بمرصد بوردو أن يخصص للكتابة عنها كتاباً صدر عام ١٩٢٩ وسماه Les Bernouilli et le Bernowilfienum وفى هـذا الكتاب ذكر الأستاذ دوبليه أن أسرة برنولى شغلت كرسى العلوم الرياضية فى جامعة بال — مسقط رأسها — مائة عام وثلاثة دون انقطاع ؛ وبقيت أكاديمية العلوم فى باريس تحوى أحد أفراد أسرة برنولى مدة واحد وتسعين عاماً متوالية

وكما نرى أثر الوراثة بين العلماء نراه أيضاً بين الشعراء . وقد وجد جالتون اثنين من العباقرة فى الشعر بين أسر : بيرون وشفييه وجوته وهين وراسين . . . . وثلاثة أو أربعة فى أسر : أسكيل وارستوفان وكورنى وملتون . . . وخمسة أو ستة فى أسرتى كولردج ووردزورث . . .

ووجد جالتون اثنين من الكتاب والأدباء فى كل أسرة من أسر بوسويه وشاتوبريان وشامبليون وادجارپون وملّ . . . الخ وثلاثة أو أربعة فى أسر بنتام وبوالو وفينيلون ولسينج وشفيني ، وخمسة أو أكثر فى أسر فيلينج وماكولى وشليجل وستايل وغيرها

وبين الموسيقيين نجد أسرتى باخ Back وسترس Strauss هما الأسرتين اللتين ظهر فيهما أكبر عدد من الموسيقيين . ويبدأ تاريخ أسرة باخ عام ١٥٥٠ ، واستمر يظهر منها الموسيقيون الموهوبون ثمانية أجيال متعاقبة ؛ وكان من عادة هذه الأسرة أن يجتمع أعضاؤها المغرمون بالفنون مرة فى كل عام ؛ فكان يصل عـدد المجتمعين أحياناً إلى مائة وعشرين فناناً ؛ وقد ذكر فتيس Fétis أن هذه الأسرة حوت سبعة وخمسين موسيقياً منهم تسعة وعشرون كانوا فى عداد النابغين

على أننا لا ينبغى أن نخرج من هـذه الحقائق بأن العبقرية (داءً) وراثية . إذ أن توارث العبقرية محدد ببضعة أجيال فقط ، كما أنه ليست هنـاك قاعدة عامة لتوارث العبقرية . بل بالأحرى هناك استثناء . ويمكن أن نقول أكثر من ذلك وهو أن العبقرية الحقيقية داءً منعزلة ، أو كما يقول لومبروزو Lordat : (إن العباقرة هم أطفال لقطاء ورجال أعزاب) Les génies sont des enfants trouvés et des célibataires. ويقصد بذلك أن الطبيعة تمحى حين تخلق العبقرى

ولو كانت العبقرية تنتقل بالوراثة دائماً لكان من الضروري أن توجد (أجناس) معينة من العباقرة . وهذا ما لا وجود له . (إن العبقرية حادث فجائي يكون أحياناً وراثياً) Le génie est un accident, qui est parfoit héréditaire.

وقد ذكر لومبروزو للملاحظة الآتيـة : (إذا وضعنا جانبا عدداً قليلاً من الحالات الاستثنائية كالتي نجدها في أسر داروين وكاسيني وبرنولي وسان هيلير وهيرشل ، وجدنا أن العبقري لا ينقل إلى ذريته إلا اتجاهاً حقيقياً يعظمه في عيوننا الاسم المجيـد !)

إن أبنـاء العباقرة هم في الغالب مخلوقات عادية بل أقل من العادية . ويقول ج . مورو دوتور : (إن الملاحظة العامة ترينا أن غالبية أبناء الرجال العباقرة ليسوا فقط أقل من آبائهم ، بل هم كسائر الناس العاديين) ، وقد أكد الكسندر تاسوني Alexandre Tassoni أحد كتاب القرن السابع عشر أنه كثيراً ما يحدث أن ينجب آباء عباقرة أبناء عظيمي البلاوة ، وآباء شديدو البلاوة أبناء علماء . واستشهد على النوع الأول بأبناء أفريكان الكبير وأنطوان وشيشرون ومارك أوريل وسقراط . ويعتقد أوسوالد الكيميائي الألماني الشهير أن أبناء الرجل العبقري لابد أن يكونوا أقل منه

وذكر تاسوني رأي أحد العلماء المعاصرين له وكان يفسر النقص في كثرة أبناء الرجال العباقرة بقوله : (في الرجال العظام تتجمع معظم القوى الحيوية في المخ كيما تقويه وتبعث الحيـاة والعنف في القوى الفكرية . ولهذا السبب يكون الدم والخلية باردين ضعيفين . والنتيجة أن يكون أبناء أولئك الرجال وخصوصاً الذكور أغبياء)

وهناك حقيقة أخرى هامة فيما يختص بوراثة العبقرية ، وهي أن هناك ظواهر من الجنون والاضطراب العصبي تحول دون وراثة هذه العبقرية . ذلك أن العبقري تصحبه غالباً أنواع خاصة من الأمراض النفسية . وكثيراً ما يلاحظ المرض العقلي عنـد سلف وخلف الرجل العبقري . ومن المعلوم أن الجنون ينتقل غالباً وبكثرة شديدة في الأجيال القريبة . وحالات الجنون الوراثي في ثلاثة أجيال متعاقبة عديدة جداً . وكان الجنون فيها في الغالب من نوع واحـد . والآن ، أليس هنا تشابه — وإن لم يكن كاملاً — بين وراثة العبقرية ووراثة الجنون ؟

وقد ذكر مورو دوتور أن بين طبقات المجتمع التي تحوي أكبر عـدد ممكن من الرجال الممتازين بذكائهم الشديد يوجد أيضاً أكبر عدد ممكن من المجانين . وقد لاحظ كل علماء النفس أن هناك عدداً من المجانين لهم أقارب يتميزون بذكاء تتفاوت درجاته . من ذلك أوليمبيا أم اسكندر الأكبر التي كانت امرأة فاسدة الخلق ظاهرة الوضاعة . وكان أب الاسكندر داعراً إلى أقصى حد . وكان الاسكندر نفسه مصاباً بحالة عصبية في كوعه . وكان شقيقه أريدوس — الذي قتل بأمر أوليمبيا — أبله معتوها

وكان ابن برناردين دوسانت بيير ، وإحدى بنات فكتور هوجو ، ووالد وأشقاء ڤيلمان ، وشقيقة الفيلسوف كانت ، وشقيقة هيجل ، وغيرهم وغيرهم كانوا جميعاً مجانين . وكانت شقيقة ريشليو تتصور أن ظهرها من البلور ، وكان شقيقه معتوهاً . وكان والد الموسيقي بيتهوفن مدمناً الخمر ، وكان الشاعر بودلير نفسه نصف مجنون . وقد كتب يقول : (إن والدي اللذين كانا إما معتوهين أو مجنونين قد ماتا ضحيتي جنون فظيع) وكان والدا الشاعر الأمريكي الشهير ادجار بو شديدي الادمان لتعاطي المشروبات الروحية

وكانت تحدث لشاتوبريان حركات تشنجية في ذراعه ، وكان دائم التفكير في الانتحار ، وكان أخوه نصف مجنون ؛ وكان والد بلزاك غريب الأطوار ، وكذلك كان بلزاك نفسه . وكانت جورج صاند شـديدة الانقباض والحسرة وهي في السابعة عشرة من عمرها ، وقد حاولت الانتحار فيما بعد عدة مرات . وقد كان والدها يشبهها من هاتين الناحيتين . وكان كثير من أقارب هوفمان مجانين . أما هوفمان نفسه فقـد أصابه الخرف لطول استسلامه للشراب ، وكان يتصور أمام عينيه أشباحاً ويصيبه من جراء ذلك الرعب الشديد ، فيطلب من أمه أن تجلس بجانبه . وكانت خالة هيرتر مجنونة وأخته شديدة الكآبة ؛ وقد جن ابنها

وكان أثر الوراثة المرضية بارزاً في لورد بيرون . إذ كان أبوه رجلا فاسد الخلق وغداً . وكانت أمه غريبـة الأطوار متكبرة طائشة . كذلك كان شوبنهور وارثاً لما كان عليه من غرابة الميول واضطراب الأعصاب . فقـد كانت خالة جدته وجدها مجنونين . وكان أبوه تنتابه نوبات قوية من الغضب المتزايد والهم

الدفين الذى يكشف عن نفسيته المريضة

وكانت أسرة الفيلسوف رينان ـ الذى كان يعذبه اضطراب أعصابه ـ تسودها أنواع مختلفة من الجنون ؛ وكان عمه مأفونا . وقد قضى حياته فى التسكع حتى وجد ذات ليلة ميتاً على قارعة الطريق . وكان جد رينان شديد الوطنية عظيم الاخلاص ، ولـكنه فقد عقله عام ١٨١٥ م نتيجة همّ ألمّ به . وقد أصبحت بلدة تريجوبير التى ولد بها رينان ممتلئة بالمجانين وأنصاف المجانين نتيجة إكثار أهلها من زواج بعضهم ببعض

فما ذكرنا يظهر أن العبقرية ليست محدودة . وأنها لا تمتد إلا لأفراد مخصوصين ، فلا بد اذن من أن نعرف أن هناك شيئاً آخر غير الوراثة المجردة . إن العبقرى يظهر فى الأسرة فى لحظة معينة ولا يمكن أن يظهر قبل ذلك . كذلك قد يتبعه وقد لا يتبعه عباقرة آخرون . والأب العبقرى قد يكون له ابن عادى ، وقد يكون هـذا الابن غبياً . وإذا استمرت الأسرة فى إنتاج عباقرة كثيرين فان هذه الظاهرة تقف بعد بضعة أجيال كأن الطبيعة قد نالها الزهق والضنى . وأخيراً كثيراً ما يحدث أن يحل الجنون محل العبقرية ويكون ذلك راجعاً إلى نوع خاص من الوراثة متأثر بعوامل غير وراثية

وقد قال البعض : إن الوراثة والبيئة يتعاونان معاً بنشاط على إيجاد العبقرى ، إذ أن (الوراثة) لاتنتج فى الرجل إلا (ما يمكن أن يكون) وليس ما سيكون ، أما آثار الوسط وحدها فهى قادرة على تحويل الاحتمال إلى أمر واقع . على أن (الوسط) لا يكون تأثيره بعـد الولادة فقط ، بل إنه يؤثر فى الشخصية المستقبلة قبل الولادة ، وذلك بطرق مختلفة

ولقد عملت أبحاث فى جلاسجو عن علاقة عدد المواليد بالذكاء فظهر أن عدد المواليد يزيد عند الرجال الأقل ذكاء ، كذلك الأسر يتكاثر عددها كلما قلت الـكفاءة العقليـــة عند أعضائها

إن العبقرية شذوذ وشرود عن الحالة العادية ، وهى بلا شك اضطراب أكيد ؛ هى حادث فجائى ، وكذلك الجنون ، وهذا الحادث الفجائى قد يرجع إلى حالة الوالدين قبل الحمل أو إلى اضطراب يصيب الجنين ، فما يحدث للوالدين قد ينتج عند الطفل نوعاً من الشذوذ النافع ، وقد ينتج تشويهاً فى خلقته ، أو يؤدى إلى التحام الجنينين ببعضهما إذا كانت الأم تحمل اثنين : وهـذا الشذوذ قد ينتقل بدوره بالوراثة . على أن انتقاله يكون بدرجة محدودة ولبعض أجيال فقط ، والاضطراب الذى يحدث فى حالة عدم استمرار التحام الجنينين قد يكون أثره فيما بعد إما أن ينتج عبقرية وإما جنوناً ، أو اضطرابا فى الأعصاب ؛ وقد يجتمع الحالتان معاً . وأخيراً قد تتبع كل منهما الأخرى ، أى أن يجمع الشخص أحياناً صفات العبقرى ومواهبه ، وأحياناً أخرى اضطراباً فى الأعصاب يجعله أشبه ما يكون بمجنون حقيق

وهناك أنواع من الشذوذ تنتقل أحياناً بالوراثة ، وأحياناً لاتنتقل ، مثل الحول ، وقصر النظر ، وصغر أحد أعضاء الجسم أو كبره أكثر من الحد الطبيعى ؛ وأحياناً يكون هناك اتجاه نحو مصادر الانسان الأولى . وقد تكلم عن ذلك ريبو فى كتابه عن (الوراثة) إذ ذكر أن أسرة كلبورن كان بها شـذوذ الست أصابع Sexdigitisme (أى زيادة أصبع فى اليد أو فى القدم) وقد استمر هذا الشذوذ فى الأسرة مدة أربعة أجيال

والآن ، أليس هناك تشابه بين الشذوذ الجثمانى والشذوذ العقلى الذى يسمى العبقرية والذى تكون فيه الوراثة أيضاً محدودة ؟

ذكرت مدام ناجوت ولبوكفتش أن سيدة كانت تتبع عبثاً وسائل لاجهاض نفسها ، فعند ما وضعت الطفل فى ميعاده المعتاد كان هذا الطفل قوىّ البنية ولـكنه كان أبله . وكانت والدة (كاردان) قد حاولت إجهاض نفسها أيضاً عدة مرات دون جدوى ، وكانت النتيجة أن أصبح الطفل الذى ولدته وهو (كاردان) عبقرياً فذاً ؛ وقد تكون محاولة السيدتين كلتيهما إجهاض نفسيهما ليس هو السبب الحقيق ، لـكن هذا التشابه كاف لأن يرينا كيف تنتج حالات الشذوذ التى تسمى بالعبقرية . والتى هى وراثية ولـكن إلى درجة محدودة

إذن ماذا عسى أن يكون قانون هـذا الشذوذ ؟ ذلك ما لا يعلمه أحد . ومنذ بضعة أعوام قال الأستاذ چ . هكسلى إنه قد يمكن فى المستقبل أن يُجعل كل طفل عبقرياً بتغيير بعض غدده ، وقد يكون ذلك حلماً خيالياً . على أن مجموع الحقائق المعروفة تثبت أن فى تكوين العبقرية قانوناً ينتج (شذوذاً) خاصاً . فمن يدرى ؟ قد يستطيع الانسان فى حالة فهم هذا القانون ودراسته أن يصنع العبقرية ؟

(...)